الشعر العربى فى الهند

أ/ خورشيد إقبال الندوى(*)

لقد تنوعت الأغراض الشعرية عند الشعراء الهنود، سواء أكانت أغراض قديمة ورثوها عن أسلافهم، أم كانت جديدة استمدوها من البيئة المحيطة بهم، أو من ظروف الحياة والتيارات الحديثة، حيث لم يترك شعراء الهند فنًا من فنون الشعر أو غرضًا من أغراضه إلا وطرقوا أبوابه، وغاصوا فى ضروب الشعر مثل الشعراء فى البلاد العربية، حيث نجد لهم قصائد فى معظم موضوعات الشعر من مدح غزل ووصف وزهد ورثاء وفخر وهجاء... وما إلى ذلك.

وهاك تفصيل ذلك:

أولاً: المدح

يُعدُّ المدح أحد الأغراض الأساس فى الشعر العربى، له أهمية كبيرة عند شعراء العرب منذ العصر الجاهلى إلى يومنا هذا، والمدح فى الأصل تعبير عن إعجاب المادح بصفات مثالية، ومزايا إنسانية رفيعة، يتحلى بها شخص من الأشخاص، أو تتجلى فى مآثر قوم أو أمة من الأمم، أو شعب من الشعوب، وأفضل المدح ما صدر من صدق عاطفة وحقيقة واقعة، لا يكتب فيه الشاعر ولا يبالغ، وأجمل المدح ما ابتعد عن تمجيد الامتيازات المادية، وأجود المدح ما أخلص فيه الشاعر لنفسه ولحقيقة ممدوحه ولخير مجتمعه.

وقد تطور فن المدح فى عصر النبى ﷺ؛ وذلك لأن الشعراء الذين أسلموا فى ذلك العهد تشرفوا برؤية النبى ﷺ وصحبته، فحاول كل منهم أن يعبر عما يدور فى وجدانه من مشاعر وإحساس تجاه النبى ﷺ عن طريق قرض الشعر.

وفى الهند كان المديح النبوى أحد أهم الألوان الدينية التى عرفتها عبر عصورها،

(*) ماجستير الآداب - الهند.

والتى ساعد شعراؤها على تعميق معانيها وترسيخ أصولها، كما بلغ المديح النبوى بالهند درجة عالية من الانتشار والازدهار، حتى لا نجد شاعراً إلا له قصائد أو أبيات متفرقات فى مدح الرسول ﷺ، وذلك لما للرسول ﷺ من مكانة واحترام وحب فى قلب كل مسلم، فهم يعبرون عن مشاعرهم وعاطفتهم نحو الرسول ﷺ بصدق وإخلاص، ويصلون عليه مرات ومرات بأسلوب جميل وطراز بديع.

وكذلك نالت مدائح آل البيت نصيباً وافراً من الشعر عند شعراء الشيعة، كما نجد بعض الشعراء يمدحون أولياء الله والشيوخ والأساتذة وكذلك الأمراء والسلاطين، لا لمناصبهم وجاههم، ولا لنيل الجوائز واكتساب الأموال، بل من قبيل المدح للمدح والإعجاب بالشخصية، وبالإضافة إلى ذلك تناول الشعراء الهنود خلال مدائحهم الأماكن المقدسة، مثل: الكعبة المشرفة، والمسجد النبوى، ومدينة النبى ﷺ.

ومن مدائحهم:

يقول أحمد التهانسيرى (ت: ٨٢٠هـ) فى مدح النبى ﷺ:

خل الأحاديث عن ليلى وحارتها ... وارحل إلى السيد المختار من إدد

وليس فى الدين والدنيا وآخرتى ... سوى جناب رسول الله معتمدى

بر رؤوف رحيم سيد سند ... سهل الفناء رحيب الباع والصفد

بالعلم مكتنف، بالحلم متصف ... باللطف ملتحف، بالبر متسد

بالخلق مشتمل بالرفق مكتحل ... بالحق متصل، بالصدق منفرد

العدل سيرته، والفضل طيته ... والبذل شيمته فى الوجد والوبد[1]

ويقول الشاه ولى الله الدهلوى (ت:١١٨٦هـ):

وأحسن خلق الله خلقًا وخلقة ... وأنفعهم للناس عند النوائب

وأجود خلق الله صدراً ونائلا ... وأبسطهم كفًا على كل طالب

(١) نزهة الخواطر: ٣/ ١٠-١١، سبحة المرجان ص٣٨-٣٩.

وأعظم حر للمعالى نهوضة إلى المجد سام للعظائم خاطب
ترى أشجع الفرسان لاذ بظهره إذا احمر بأس فى بئيس المواجب[1]

ويقول آزاد البلكرامى (ت:١٢٠٠هـ)

برهان رب العالمين حبيبه فى الأمة الأمية العرباء
هو نير أسنى الكواكب ساطع ملأ الأهلة كلها بسناء
من معشر الإنسان إلا أنه إنسان عين المجد والعلياء
هو خير من وطئ التراب وخير من صعد السماء وخيرة الشرفاء[2]

ويقول أحمد رضا خان البريلوى:

وصلاة ربى دائمًا وعلى خير البرية سيد الأكوان
صلى المجيد على رسوله وفضله ومحبه ومطيعه بحنان
صلى عليك الله يا ملك الورى ما غرد القمرى فى الأفنان
صلى عليه الله يا فرد العلى ما أطرب الورقاء بالألحان[3]

ويقول القاضى نجم الدين (ت:١٢٢٩هـ):

محمد أفضل الإنسان قاطبة فخر الملايك زين العقل والرسل
له العطاء بلا نقص ولا خفض له السخاء بأنواع من المثل[4]

ويقول عبد المقتدر الدهلوى (ت:٧٩١هـ):

محمد خير خلق الله قاطبة هو الذى جلَّ عن مثل وعن مثل
له المزايا بلا نقص ولا شبه له العطايا بلا من ولا بدل
له المكارم وأبهى من نجوم دجى له العظائم أمضى من قنا البطل
له الفضائل أجدى من عصا كسرت له الشمائل أحلى من جنى العسل
له جمال، إذا ما الشمس قد نظرت إليه، قالت: ألا يا ليت ذلك لى

(١) نزهة الخواطر ٦/ ٤١١.
(٢) الديوان الأول، ص٥-٦.
(٣) بساتين الغفران، ص٨٨.
(٤) .....، ص٥١.

ويقول الشيخ محمد على الشيعى (ت: ١١٨٠) فى مدح أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه:

وليس عنك سواء العين منصرفا مهما تناشد بالتدعيج والكحل
اسمع كلامى ودع لامية سلفت الشمس طالعة تغنيك عن زحل
فمن أنينى قمام الأيك فى طرب قد اقتدى بزفيرى واقتفى رتلى
منى الأنين ومنكم يليق بكم بذلت جهدى لكم لابد من بدل[1]

ويقول السيد ناصر حسين اللكنوى (ت: ١٣٦٠هـ) فى مدح سيدنا على:

وجف الفؤاد بلذع حب معنف من ناحل صب كئيب مدنف
كلف بخالسة القلوب خريدة ترنو بلحظ كالصوارم مرهف
فتاكة بنفس أرباب الهوى عجالة لهم بحتف مزعف
قمراء وجها فى تحندس شعرها عفراء لونا ذات قد أهيف
أصمت له قلبا معنى بالجوى إذا أرسلت طيفا بليل مغضف[2]

ويقول فيض أحمد البديوانى (ت: ١٢٧٤هـ) فى مدح الشيخ عبد القادر الجيلانى:

ملك الورى بكماله، وهب الهدى لرجاله سمع العلى لعياله قطر الندى بنواله
بضيائه، ببهائه، بغنائه، ببقائه بولائه، بوفائه، قسمًا بكل خصاله
برع العوالم كلها ملك المكارم جلها جمع المحاسن جمعها بجماله وجلاله
بلغ الأقاصى والأدانى رشح بحر فيوضه أسف على أسف على مبتكر وضلاله

ويقول فيض الحسن السهانبورى فى مدح السلطان عبد الحميد الثانى:

مالى بذى الأرض ومن وال ولا واق ولا طبيب ولا آس ولا راق
ولا حميم ولا جاد ولا سكن ولا نديم ولا كأس ولا ساق
أثنى عليك ثناء لست أحسنه بذكر ما فيك من سم وترياق
تحيى الصديق بإكرام يليق بكم تردى العدو بإحراق وإغراق[3]

(١) .... الأفراح، ص١٨٨ .
(٢) نزهة الخواطر ٨/ ٤٨٩ .
(٣) ديوان الفيض، ص٤٨-٥٠ .

ويقول ذو الفقار على الديوبندى (ت:١٣٢٢هـ) فى مدح السلطان عبد الحميد أيضًا:

يا آل عمثان يا فخر الكرام ويا ... خير الأنام لأنتم منتهى أملى
جزاكم ربكم خير الجزاء عن الـ ... إسلام إذ قد نصرتم سيد الرسل
أغناكم الله بالنصر المبين لكم ... عن الإعانة بالأنصار والخول
سلو سيوفكم والله ناصركم ... على الطغاة من الأوغاد والسفل
أبقاكم الله فى عز وفى شرف ... وفى علو وفى مجد وفى زعل[1]

ويقول أزاد البلكرامى (ت:١٢٠٠هـ) فى مدح ناصر جنك بن النواب آصف جاه:

هو ناصر الإسلام سلطان الورى ... أبقاه فى العيش المخلد ربه
حاز المناقب والمآثر كلها ... جبل الوقار يحبنا ونحبه[2]

ويمدح محمد جان البحرى آبادى (ت:١٢٣٨هـ) الشيخ أحمد السرهندى فيقول:

بركاته عمّت فواقت كل ما ... ذرت عليه الشمس من بحر وبرّ
عمّ الورى طرًا سنا آثاره ... قرت لرؤيتها عيون ذوى البصر
كم محدث نيرانه خمدت به ... إذ طار من نيرانه شرر وشر
كم من موات القلب نال حياته ... من فيضه فزها وراق به النظر
كم جاهل غر أناه لرشده ... فالجهل زال برشده وكذا الغرر[3]

ويقول المفتى سعد الله (ت:١٢٩٤هـ) فى مدح النواب كلب على خان (ت:١٣٠٤هـ):

بحسن تدبيره العالى وفطنته ... ورأيه صائبًا أجلى البراهين
من عدله ألف الأسد الظباء كما ... عزلانها صرن أولاً السراحين
فلا يرى فتنة فى عهد دولته ... غير الذى فيه عيور الحور والعين

(١) نزهة الخواطر ٨/ ١٤١-١٤٣.
(٢) .... المرجان، ص١٢٢ .
(٣) نزهة الخواطر ٨/ ٤١٦-٤١٧ .

طاب المدائح من مد الأمير كما طاب النسائم من روض الرياحين[1]

ويقول السيد ظهور الحسين فى فضل المدينة المنورة:

من لى بطيبة قد طابت أسرتها بالطيب المصطفى والطاهر والزاكى
ياتربة قد حوت علياء شامخة ما أن ينال ذراها فرع أفلاك
طاب الثرى منك لم يبلغ تأرجه فرح العبير وأين المسك من ذاك
فيك النبى لقد جلت مراتبه ذلت لرتبته أعناق أملاك

بعد استعراض نماذج من المدائح لدى الشعراء الهنود، نجد أن المدائح النبوية كانت مقصداً عظيمًا لمعظم الشعراء الهنود، حيث يبدأون القصيدة بالصلاة على النبى ﷺ، ثم يأتون بعدها على فضائله ومكارمه ومكانته بين الأنبياء، ثم يذكرون معجزاته خاصة الإسراء والمعراج، كما يذكرون بعضهم جوده وسخاوته وشجاعته، ومنهم من يظهر التشوق إلى زيارة قبره ومسجده، ويختمون المدحة فى الغالب بالاعتذار إلى الرسول ﷺ عن التقصير فى مدحه، وعدم الإحاطة بشمائله ومناقبه أو بالصلاة والسلام عليه، ومنهم من يطلب التشفع منه يوم الحساب.

وأما مدح الحكام والأئمة وأولياء الله الصالحين، فقد تجسمت فيها روح المبالغة والغلوّ، حتى جعل البعض ممدوحه إنسانًا فوق الخيال والتصور.

ثانيًا: الغزل

يطلق الغزل على نوع من الأشعار موضوعه الحب والهيام، يذكر فيه المحبوب والخمر والكأس، وكذلك صفات المعشوقة وجمالها، وقامتها وطول ليالى الفراق وشدائده وقصر ليالى الوصل وعوائده، وإسالة العبرات وشكوى الصبابات وما إلى ذلك.

والغزل عامة يصدر عن حب عميق، يعتمد على المعانى الروحية أو الحسية، ويعبر عما يختلج فى نفس العاشق من تباريح الهوى، وما يعرض له فى حبه من أحداث ومفاجآت.

(١) انتخاب ياركاد ٢/ ٣-٤.

وله ثلاثة أنواع:

١- **الغزل التقليدى**: هو ما يفتح به قصائد المدح والهجاء والرثاء أحيانًا، كما نطالع فى قصيدة جرير التى هجا بها الأخطل، حيث قال فى مطلعها:

بان الليط ولو طوعت ما بانا وقطعوا من حبال الوصل أفرانًا
يا أم عمرو جزاك الله صالحة ردى على فؤادى كالذى كانا
لقد كتمت الهوى حتى تهيمنى لا أستطيع لهذا الحب كتمانا
لا بارك الله فى الدنيا إذا قطعت أسباب دنياك من أسباب دنيانا

٢- **الغزل الإباحى (الصريح)** : هو الغزل الذى يتسم بالمجون والعبث، ويقص ذكريات هجر المحبوبة ووصالها فى كذب وفُحْش.

ومن أهم صفات الغزل الإباحى: عدم الوفاء لحبيبة واحدة، واستباحة وصف مفاتن الجسد، وسرد المغامرات الفاضحة للقاء المعشوقة والاختلاء بها.

وقد نشأ هذا اللون من الغزل فى أشهر مدن الحجاز بين المغنيين والمغنيات، ومن أشهر شعرائه: الأحوص بن محمد الأنصارى، وعمر بن أبى ربيعة القرشى.

يقول عمر واصفًا ملاقاتها له وما دار بينهما من حوار:

فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى ألم تتق الأعداء والليل مقمر
وقلن أهذا دأبك الدهر سادرا أما تستحى أو ترعوى أو تفكر؟
إذا جئت فامنح طرف عينك غيرنا لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

٣- **الغزل العذرى**: هوحديث الشاعر عن المرأة يتسم بالعفة فى القول، والإخلاص فى الحب، يصف فيه جمالها وحسن حديثها، دون خدش حيائها أو الكذب عليها، ويدور حول محبوبة واحدة.

نشأ هذا اللون ببادية الحجاز فى بنى عذرة وخزاعة بين الشباب الذين أثروا حياة البادية، فكان غزلهم نزيهًا عن الفحش بعيدًا عما يخدش حياة الفتاة البدوية.

ومن أبرز شعراء الغزل العذرى: جميل بن معمر صاحب بثينة، وقيس بن معاذ (مجنون) صاحب ليلى، وقيس بن ذريح صاحب لبنى، وعروة بن حزام صاحب عفراء، والشاعرة ليلى الأخيلية صاحبة توبة بن حمير.

يقول جميل:

يقولون جاهد يا جميل بغزوة ... وأى جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشة ... وكل قتيل بينهن شهيد
ومن كان فى حب بثينة يمترى ... فبرقاء ذى ضال على شهيد

وإذا نظرنا إلى دواوين الهنود، وجدنا أنهم عنوا بالغزل عناية فائقة، باعتباره نوعًا مهمًا من أنواع الشعر، يسير به حسن تخيل قائله وتفوق مناله ورقة طبعه.

وهاك بعض النماذج من غزلهم:

يقول أحمد حسن القنوجى (ت:١٢٧٧هـ):

فديتك يا نعم الصبا خير مقدم ... فكل حمام حين أقبلت رحبا
تحاكى لك الأغصان بالوجد راقصا ... تضاحى لك الأطيار بالسجع مطربا
تنفخ فى الأشجار روحًا تمليها ... فيالك ما أزهاك صنعًا وأعجبا
هل جئت من تلك الربا برسالة ... فإن الصبا نعم الرسول لمن صبا

ويقول عبد الغفور الدانا بورى:

بانت سليمى فما شىء يسلينا ... ولوعة البين يشوينا ويصلينا
قامت تودعنى والهجر يمنعها ... وقمت عانقتها والحزن يبكينا
القلب ملتهب والعين ذارفة ... وشب نار الهوى والدمع يروينا
غيداء فاتنة هيفاء ناعمة ... تحكى نسيم الصبا أعضاؤها لينا
شمس إذا طلعت برق إذا برزت ... فتانة بسهام العين ترمينا
خود غدائرها طالت إلى قدم ... والفرع يحكى سوادًا من ليالينا

ماذا جنينا وليس الحب معصية		بأى ذنب هداك تقلينا
مالت إلينا فولدت بعد ما ركنت		صدت فسلت لنا سيفًا وسكينا[1]

ويقول فضل حق بن فضل إمام (ت:١٢٧٨هـ):

فؤادى هائم والدمع هام		وسهدى دائم والجفن دام
ودمع بل دم صرف جرى من		يناطى ساجمًا أى انسجام
وطرف أرمد يؤذيه غمض		وليل سرمد ساجى الظلام
طويل لا يقاس به ظلام		فساعته كشهر بل كعام
كأن كواكب الجوزاء نيطت		بأجفان دوام بالدوام
حمامى حاضر والوجد باد		وجسمى ذابل والشاق نام
سرى فى الغرام فصار غرما		وذاك الغرم من أدهى الغرام[2]

ويقول السيد ناصر حسين اللكنوى (ت:١٣١٣هـ):

مالى أرى ليلة حفت بأنوار		كأنها بضياها ذات أقمار
أتلك ليلة ليلى إذا رأت قمرا		فصيرته بدورًا عند أنظار
خود حصان مصان شخصها أبدا		وضوء غرتها تبريق أبصار
باتت لوامعها حتى بها ائتلفت		أنجاد أرض حماها بعد أغوار
لا يعرف الحى ممشاها وإن جهدوا		إلا بطيب شذاها الفاتح السارى[3]

ويقول آزاد البلكرمى (ت:١٢٠٠هـ):

أرخى على الستر ليل داج		يا شمس ابن كرامة الإبلاج
شمس التى حلت ببرج حيائها		لا ربة الجولان فى الأبراج
لا غرو إن شغف العلام بحبها		إن الفراش لمغرم بسراج
يا أيها الحذاق فى طب الهوى		أبقاكم الرحمن أين علاجى

(١) نزهة الخواطر ٨/ ٢٧٢.
(٢) نزهة الخواطر ٨/ ٤٨٩.
(٣) الثقافة الإسلامية، ص٥٢، نزهة الخواطر ٨/ ٤٨٩.

ما لان قط فؤادها بلجاجتى ويلين الحجر الأصم لحاجى
ميلان قلب سعاد نحو فؤادنا ميل الحجير إلى رقيق زجاكى

ويقول السيد طفيل محمد الحسينى (ت:١٢٣٤هـ):

قلنا له عينك النجلاء باخلة فيها الرنو إلى العشاق مفقود
فقال العين قد جاءت مؤنثة وفى الإناث طريق البخل محمود

ويقول عبد الرحمن الغاز يبورى (ت:١٣٣٤هـ):

العشق أمر لو أبوح بسره تالله لم يك فى الدنيا مريح
شمس بها شمس السماء مضيئة مسك إذا مرت عليك تفوح
لا عيب فيها غير أن فؤادها إذ قيل جودى بالوصال شحيح
يا ويلتى ما فزت قط بمقصدى بل مسنى من قطعة التبريح
فالآن لا نفس اشغلى بثناء من ذاكره للقلب الحزين مريح

من المعروف أن معظم الشعراء الهنود كانوا علماء؛ ولذا لا يمكن أن يخرج نسيبهم من ذلك النوع الذى يعرف فى الأدب العربى بالغزل العذرى متمثلاً فى الحب الطاهر، والذى يقوم على تهذيب النفس ورقة المشاعر والسمو بالأحاسيس وغيرها، مما يدعو إليه الإسلام والإنسانية من القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة؛ لأن التعبير عن الحب العفيف وتصوير النسيب الطاهر أمر أصيل فى الطباع السليمة والمستقيمة، يتفق مع فطرة الله التى فطر الناس عليها، ويتلاءم مع القيم الإسلامية والوجدان الروحى بما لا يخدش الحياء ولا يجرح المشاعر، ولا يدعو إلى الحرج أو الضيق، ولا يتنافى مع العواطف الإنسانية الراقية المهذبة وغير ذلك مما يتناقض مع الغزل الهابط والنسيب الفاضح والتشبيب المكشوف والعبث الماجن.

من هنا نجد شعراءنا لا يستخدمون ألفاظًا وصورًا تخدش الكرامة، وتنال العرض وتحط من الشرف والعفة مما ينهى عنه الإسلام، وتأباه النفوس الأدبية، وتنفر منه الإنسانية المهذبة بل

كانوا بعيدين كل البعد عن ألفاظ القبح وكشف العورات والسواقط وأساليب التهتك والاستهتار، وهو ما يمكن أن يعبر عنه بـ "نجوى الحب".

ثانيًا: الوصف والتأمل فى الطبيعة:

إن فن الوصف قديم درج عليه الشاعر العربى منذ أقدم العصور، حين وصف الشعراء الجاهليون صحراءهم الجافة وكثبانهم الرملية وشمسهم الحارقة، وحيواناتهم التى كانت تحيط بهم، إلا أن أوصافهم لم تتعدى مرتبة التصوير العينى والتشابيه الحسية والمعنوية.

ثم جاء شعراء العصرين الأموى والعباسى ومن بعدهم شعراء الأندلس، وتأثروا بمناخات الحضارة والعمران، فتطور فن الوصف على أيديهم، وارتقى إلى مراتب عالية من الصياغة الوجدانية العميقة، ومن سطوع التعبير الفنى، نلاحظ ذلك بوضوح فى شعر أبى نواس وأبى تمام وابن الرومى والمتنبى وسواهم ممن بلغ الوصف على لسانهم مرتبة الروعة، مضمونًا إنسانيًا ذاتيًا، وشكلاً أسلوبيًا يناغم محتواه، وينسجم مع أغراضه، قياسًا على وصف الشعراء الجاهليين، ومن دار فى فلكهم من شعراء الطبع والبداوة.

هذا، وإن النظر فى هذا الكون الفسيح بعوالمه المختلفة والمتعددة أمر يجله القرآن ويحض عليه، وإن إمعان النظر فى حديقة أو شجرة أو زهرة أو طائر، وكذلك فى القمر والشمس يفتح آفاقًا رحبة وأفكارًا جديدة، بل هذا رافد من روافد تربية الأذواق وتهذيب الطبائع على نحو يجعلها ذات ملكة جمالية تمج القبح وتنفر منه، وتأنس للجميل وتميل إليه.

وإذا يممنا صوب الشعر الهندى، فإننا نلمس فيه هذه التأملات الرائقة والنظر الدافق نحو مظاهر هذه الطبيعة، وما ذلك إلا لارتباطه ارتباطًا وثيقًا بكل نواحى الحياة ومشاهد الجمال، فنرى الربيع بسمته المعروف وأثره البالغ، كما نجدهم يصفون الرياض وأنوارها، والحدائق وأزهارها، والطبيعة ومناظرها.

وها هى النماذج:

يصف فضل حق بن فضل إمام (ت:١٢٧٨هـ) الأعضاء وصفًا حسيًا فيقول:

سقاني مداما بالرضاب مشعشا ... يدومه بالريق حين يسور
لثمت فجازى والتزمت فضمنى ... به وكلانا هائم، وسكور
فبتنا كما شئنا ضجيعى محبة ... وطوع هوانا بهجة وسرور
وباتت يدمنى وشاحًا للكشحه ... وما ثم فينا كاشح وختور
إذا عبرت عن لوعتى عبرة جرت ... جرى فجرى من عارضيه عبير[1]

ويصف آزاد البلكرامى (ت:١٢٠٠هـ) أعضاء العشيقة فيقول فى الحاجب:

أبصر حواجبها وأدرك كنهها ... غصنان منحنيان وسط البان
أو كافران يشاوران ليوقعا ... آمالنا فى موقع الحرمان

ويصف فيض الحسن السهار بنورى (ت:١٣٠٤هـ) حاله، فيعبر عن مشاعره بصدق واضح فيقول:

أنا مدنف منهوك ... أنا بائس صعلوك
لكن فى قلبى غنى ... لم يحظ منه ملوك
فلن ترانى باكيا ... إذا تعبنى ضحوك
واها لمن هو تارك ... وكم امرئ متروك
قد كان لى ما كان إذ ... كان الشباب يحوك[1]

ويصف الشيخ عبد العزيز الدهلوى (ت:١٢٣٩هـ) مدينة دهلى قائلاً:

يامن يسائل عن دهلى ورفعتها ... على البلاد وما حازته من شرف
إن البلاد إماء وهى سيدة ... لأنها درة والكل كالصدف
فاقت بلاد الورى عزًا ومنقبة ... غير الحجاز وغير القدس والنجف

(١) مجموعة فضل حق، ص٤٦-٤٧.
(٢) ديوان الفيض، ص٥٠.

سكانها هم جمال الأرض قاطبة		خلقًا وخلقًا بلا عجب ولا صلف
لا غرو إن زينت الدنيا بزينتها		كم من أد علا بابن ذوى شرف
وماء جون[1] جرى من تحتها فحكى		أنهار خلد جرت من أسفل القرف

ووصف السيد يوسف الواسطى (ت:١١٧٢هـ) بستانًا فقال:

لاحت لنا روضة راقت مباسمها		وعارضت فى سنا برق البعاليل
فلا تخل، تلك أوراد بسمن لها		وهن المصابيح فى حمر القناديل

ووصف السيد حسن اللكنوى "الربيع" الذى يخضر المراتع ويريح الأسماع والأنظار ويفرح الطبائع قائلاً:

جاء الربيع بأسعد الأحيان		فأزاح على جملة الأحزان
قد أشربت فى الروض ماء نضارة		شجراتها المهزولة الأغصان
صارت كأمثال العرائس بهجة		تحكى ملابسها ثياب جنان
قد صار معتدلاً مزاج نسيمها		فجنوبها وشمالها سيان

وقال آذزاد واصفًا الربيع:

أدرك عليلاً لقاء منك يكفيه		وطرفك الناعس الممراض يشفيه
كتمت دائى عن العزال مجتهدًا		ما كنت أدرى نهول الجسم يشفيه

ويصف المفتى محمد عباس التسترى (ت:١٣٠٦هـ) الطبيعة فيقول:

وإن شمت أفقًا برقًا ودقا		تخيلت فيها جيادًا عتاقا
عرقن من الجرى فانصب قطر		ترقرقهن على الدر فاقا
ومهما تهب على الباغ ريح		أدار الرياحين كأسًا دهاقا

(١) نهر من الأنهار الكبيرة فى الهند تسمى "جمنا".

ويصف باقر آكاه بعض الأزهار الهندية فيقول فى زهرة "صبا":

أيا سائلاً عن زهرة صبا فإنه غدا ريحه روحًا وروحًا لنا شق

تلاقى به حسن وحشق كلاهما له نضرة المعشوق فى وجه عاشق

من كل ما تقدم ندرك أن للطبيعة ميدانًا عريضًا فى فن الوصف الشعرى، فقد كانت منبعًا غنيًا لاستخراج الصور والتشبيهات، وأفقًا رحبًا لتحليق الخيال، ومصدرًا مهمًا للاستلهام والاستيحاء، فاستحوذت بفضل الله على حواس الشعراء وأذواقهم، وتسربت ألفاظها وتعابيرها وألوانها إلى الفنون الشعرية الأخرى.

إن شعراء بلدنا عنوا وصف أشياء عديدة، ولم يقتصر فنهم على الطبيعة بما فيها من مظاهر فحسب، بل تجاوز إلى غيرها من موجودات، ولم يتركوا شيئًا أثار فيهم إعجابًا أو خلق اندهاشًا، أو هز شعورًا، إلا قالوا فيه، فقد وصفوا الريا ض بما فيها من أزهار، والبساتين بما فيها من أشجار وأثمار، والمدن بما فيها من حدائق وقصور وأسواق وشوارع، كما وصفوا الأنهار والجبال والأمطار والمواسم إلى ما هناك من موضوعات كثيرة صادفتهم فى حياتهم أو ألمت بمجالسهم أو طرأت على ظروف حياتهم.

رابعًا: الرثاء

الرثاء هو ذكر مناقب الميت والبكاء عليه، وهو من أهم أغراض الشعر العربى، يعبر الشاعر فيه عن مشاعر الحزن واللوعة، التى تنتابه لغياب عزيز فجع بفقده، أو لكارثة تنزل بأمة أو شعب أو دولة، والعاطفة فيه أصدق منها فى المدح لإخلاص الشعراء لمن يرثونه، وصدور رثائهم عن الطبع وفاء لمن ذكروا لا طمعًا فى نوالهم.

والحديث عن الرثاء أشبه بالحديث المعاد لا يكاد شاعر فيه يختلف عن الآخر، وكلما كان الشاعر مثيرًا للأشجان موقظًا للأسى مضاعفًا للحزن، كان ناجحًا فى الوصول إلى غرضه من الرثاء، ويحتفظ لنا ديوان الشعر العربى على مختلف عصوره بتراث تُعد من أجمل ما قيل فى الشعر، تتردد فيها صولة الموت، وسلطان الفناء، وتتضمن أبياتًا حكيمة

تدعوا إلى الاعتبار والزهد، كما تتضمن الإشادة بمآثر المرثى، وفداحة المصيبة.

وبالنظر إلى أهمية هذا الفن عند الشعراء، نجد شعراءنا يهتمون به كذلك، ويجعلونه غرضًا من أغراضهم الشعرية.

وهاك النماذج:

يقول فضل حق بن فضل إمام فى رثاء صديقه الحميم محمد فيض الله خان المقتول ظلمًا:

علا زفيرى ودمع العين ينحدر ... وبلنى الدمع والأحشاء تستعر
مالى أوارى وهو مستعر ... بين الحشاد وما النيران تستتر
مالى أرى الليل لا ينجاب ظلمه ... كأنما ظل فيها الشمس والقمر
كأن ليلى بيوم الفصل متصل ... فما له دونه صبح ولا سحر[1]

ويقول فيض الحسن (ت:١٣٠٤هـ) فى رثاء مولوى كل محمد:

نبكى ونذكر سرًا أو علانية ... ما كنت تعطى بإعلان وأسرار
الدمع منسجم والقلب مضطرم ... فنحن مذ مت بين الماء والنار
أرثيه حبًا على حب ويشهد لى ... همى وغمى وتذكارى وأشعارى
شققت ما كان من ثوب على فها ... أنى أنا اليوم لا كأس ولا عار
أبكى عليه طويلاً حين أذكره ... ولا أبالنى بإقلال وإكثار[2]

ويرثى آزاد البلكرامى فيقول:

برق أضاء من الزوراء يشجينى ... يارب ماله يبكى ويبكينى
أنى لسان يؤدى شكر أنعمه ... بالماء والنار يروينى ويورينى

(١) مجموعة فضل حق ص١١٩ .
(٢) ديوان الفيض، ص٦٤-٦٥ .

لا يذهب الغل ماء المزن من كبدى بل ماء ياقوتة اللمياء يرويني
إنيى لشمع قبيل الصبح محتضر ما سرعة الأجل الموعود تبقيني
تبكى وتذكرنى الوفاة فهل بكاؤها بعد ما ثويت يجدينى[١]

ورثى فيض الحسن السهانبورى أستاذه فضل حق الخير آبادى فقال:

عمى دار سلمى فأسلمى ثمة اسلمى وإن لم تحيرينى وإن لم تكلمى
سقاك غواد ما بقيت هواطل وآخر دعوانا أنعمى ثمة العمى
عافك البلى حتى نكرناك بعد ما عرفت ولم نعرفك قبل التوهم
كأن لم يكن عهد لنا بك سابقا ولم نك يومًا فيك نلهو ونرتمى
فياك من دار عفتها روامس ولو كان فيها أهلها لم تهدم
نقضن عهودًا لى عليها شواهد فرحن فمن يرثى لصب متيم[٢]

ويرثى السيد يوسف (ت:١١٧٢هـ) جده قائلاً:

يا للإمام الذى جلت مناقبه أجد بنيان مجد دارس الرسم
أعطاه رب الورى فى الكف توسعة وزاده بسطة فى العلم والجسم

ونظم عبد الحميد الصاد قبورى (ت:١٣٢٣هـ) قصيدة طولة يرثى فيها حالة المسلمين قائلاً:

فوا أسفا ونحن بنو كرام توارث فيهم علم وجود يزينهم
ذوى الأعلام والأقلام طرا المكارم والجنود
وقد كانوا ملاذ الناس طرا لكل مصيبة خصوا ونودوا
وتخضع عند رؤيتهم رقاب وترتعد الهزابر والفهود
فصرنا نحن وهن وهون يرق لنا المعاند والحسود[٣]

(١) نزهة الخواطر ٦/ ٢٠٥.
(٢) ديوان الفيض، ص٦٤-٦٥.
(٣) نزهة الخواطر ٨/ ٢٣٠، الثقافة الإسلامية، ص٥١.

كما نظم وحيد الدين الحيدر آبادى (ت:١٣٤٤هـ) قصيدة فى رثاء الأمة الإسلامية قال فيها:

هل من سبيل إلى وصل الألى بانوا ... بينى وبينهم بيد وقيعان
أو للزمان رجوع بالوصل إذا ... كانت له كالرحى فى الدور أحيان
أو للدموع وقود وهى جارية ... تدمى شئون أراقتها وأجفان
من لى بشوقهم ما يدل إلى ... أرض بها لى أوطار وأوطان
بيض كواعب مذ شدت ركابهما ... قلبى إليهن مشتاق وحنان
عينى تفيض على صدر به حرق ... حبًا لتجمع أمواه ونيران
قلبى به ألم كالنار مضطرم ... والدمع منسجم والجفن ملآن
مالى أرى زمنًا بالشر يحزننى ... وظل يلقف قومى وهو ثعبان
أين الألى أدركوا بالسعى من رتب ... ما لا يسامته بدر، وكيوان
أين الألى رتقوا فتق الورى وحموا ... دينًا به نسخت فى الدنيا أديان[1]

يبدو مما سبق من أبيات وقصائد فى موضوع الرثاء أن شعراءنا لم يقرضوا هذا النوع من الشعر، باعتباره فنًا من فنون الشعر أو غرضًا من أغراضه، أو ليعترف الناس بفضلهم وعلو كعبهم فى جميع ضروب الشعر، ولكنهم رثوا أولئك الذين أحبوهم، وحزنوا على فراقهم، وبكوا على موتهم، كما تألموا وحزنوا على ما وصل إليه حال الأمة الإسلامية، وما نزلت بها من أحداث ومفاجآت، ولذا نجد مراثيهم تعبر عن صدق؛ لأنها صدرت عن قلوب حزينة، وأكباد محترقة، ومشاعر مكلومة.

خامسًا: الزهد والوعظ

ازدهر هذا النوع من الشعر بشتى صنوفه وألوانه منذ زمن بعيد، وكان من أسمى الأغراض الأدبية عند شعراء الصوفية، بل يعد أهم الأغراض عندهم، ومن أشهر من قرضوا

(١) المنتخب من الشعر العربى، ص٣٤٧-٣٤٨.

الشعر ى هذا المجال ذو النون المصرى، وابن الفارض، والشريف الرضى، وأبو الحسن الحصرى، وفى العصر الحديث محمد مصطفى الماحى، وسيد قطب، وإبراهيم عزت، ومحمود أبو الوفا، وعامر البحيرى، وعزت شندى، وعبد الله شمس الدين، وعمر بهاء الدين الأميرى،وغيرهم.

وإذا كانت اللغة العربية نشأت فى شبه القارة فى أحضان المدارس الإسلامية، بإشراف رجال الدين وعلماء الشريعة، فلا غرابة أن نرى فيها الحماسة الإسلامية، والنزعة الدينية.

بل إننا لو تصفحنا تاريخ الأدب العربى فى الهند، وجدنا أن هذا النوع من الشعر قد حظى بنصيب أوفر، واهتمام أكبر لدى الشعراء الهنود.

وفيما يلى النماذج:

يقول فضل حق بن فضل إمام:

ألا إنما الدنيا غرور وإنما العظام عظام والقصور قبور
وقد رجت الأرضون والناس كلهم سكارى حيارى والجبال تسير
أيا نفسى إن جمت ذنوب ركبتها فلا تقنطى إن الإله غفور[1]

ويقول فيض الحسن السهانبورى واعظًا نفسه:

حان الرحيل ولا زاد وراحلة ولا رفيق ولا ما كان منويًا
أذكر ضريحك إن ضعت فيه غدا وذر وراءك طيب النوم منسيًا
لا تعص ربك فيما قد أمرت به فإن تكن عاصيًا ألقيت معصيًا
ولا تجالس أخًا إلا أخًا ثقة فى الخلق والخلق لا تلقى له سيا
وادع الإله وقل رب اعف عن رجل منى أثيم بعد البر سخريًا

ويقول عبد الحميد الفراهى (ت:١٣٤٩هـ):

أما للناس أحلام أهم فى السكر نوام

(١) مجموعة فضل حق، ص٤٧.

وهم وارد حوض الموت أصرام فأصرام
وريب الدهر يبريهم وتوهى العظم أسقاهم وحبل
فحبل الموت ممدود العيش أرمام
وهم باللهو واللذا ت مشغولون ما داموا
وهم لابد محشورو ن يومًا وهو أيام
عن النعماء مسئولو ن والسائل علام[1]

ويقول السيد ناصر الحسينى:

أيا غافلاً عن حديث النشور تذكر حكايات أهل القبور
إى أين أهل الوفا والتقى إلى أين سكان دار الغرور
ألا حول بيت الهوى لا تطف وسلم إلى الله كل الأمور[2]

ويقول أحمد بن مصطفى الكوباموى (ت:١٢٣٤هـ):

ظلمت وكنت بين الظالمينا ترحم يا ولى المؤمنينا
أضعت العمر فى كسب الخطايا وصرت بما اكتسبت به رهينا
أطعت النفس حينًا بعد حين وإنالنفس شر الحاكمينا
أنخت النوق فى بيداء غى لم أسمع لوعظ الواعظينا[3]

ويقول السيد أحمد حسن الحسينى (ت:١٢٧٧هـ):

ألا يا جالسًا فى كل نادى هداك الله ربى خير هادى
أتيت مجالس البدعات طرا ألست بخائف يوم المعاد
وما من محفل الأحداث إلا وكنت حضرته بل أنت بادى
فويلك يوم يؤخذ بالنواصى تشافه خير من حضر النوادى[4]

(١) ديوان الفراهى، ص٢-٣.
(٢) نزهة الخواطر ٧/ ٤٩٣-٤٩٧.
(٣) المرجع السابق، ص٧/ ٣٧.
(٤) إتحاف النبلاء، ص٢٧٢.

ويقول المفتى محمد عباس التسترى (ت:١٣٠٦هـ):

أتتنا منايانا على حين غفلة وقد طالما كنا نخوض ونلعب
فقيل لنا قوموا سراعًا وسافروا فسرنا وما غير الجنائز مركب
فساروا بنا سيراً إلى دار وحشة وظلمًا وما فيها من سراج وكوكب
وكم ذات خضر ضامر تحت صخرة لها أعين سود وكف مخضب
وكم طرى الجسم أصبح جيفة وقد كان فى شم الرياحين يرغب

ويقول القاضى طلا محمد (ت:١٣٩٠هـ):

يا رب يا سيدى لا منتهى أملى ما لى سواك لكشف الضر والضرر
يا ربنا إرحم على فقربومسكنتى هب لى ذنوبى وابعدنى عن السقر
يا رب أكرم على عبد سهى وأسى فى الذنب منغمس فى الإثم منغمر
فكم سهى فى مشيب العمر واجبه وكم أسى فى شباب غير معتكر
أنت الغنى فلا يخشى احتياجك فى شىء وأنت الغنى عنى وعن وزرى[1]

ويقول السيد مرتضى البلكرامى:

توكل على مولاك واخش عقابه وداوم على التقوى وحفظ الجوارح
وقدم من البر الذى تستطيعه ومن عمل يرضاه مولاك صالح
وأقبل على الفعل الجميل وبذله إلى أهله ما سطعت غير مكالح
لا تسمح لأقوال من كل جانب فلابد من مثن عليك وقادح[2]

يتضح من استقراء الأبيات المذكورة، أن بواعث الزهد والورع تختلف وتتنوع بحسب الأشخاص ومواقفهم من الحياة والناس، ومن ثم تنعكس على الشعر، فتعطيه طعمًا ومضمونًا موافقين لتلك البواعث، ومنسجمين مع هاتيك المواقف، والتصوير الأدبى فى تلك الأبيات لا تخلو صوره من الوجدان الروحى، الذى يقوم على النجوى

(١) نزهة الخواطر ٨/ ٢٠١.
(٢) إتحاف النبلاء، ص ٢٧٢.

القلبية فى حب وإخلاص؛ ابتغاء مرضاة الله عز وجل، وشكرًا لنعمه التى لا تُحصى، واستغفارًا من الذنوب والمعاصى، كما يكون -أحيانًا- بدافع الرهبة والخشية من الموت، لاسيما وقت الشيخوخة.

سادسًا: الفخر

هو من أخص صفات العرب ومن أوسع الأبواب فى شعرهم، والفخر بالقبيلة والأحساب وكذلك بالكرم والشجاعة سمة لازمة للعرب منذ القدم، وكانت مبعث فخرهم وزهورهم على مر العصور.

والفخر قديم فى الآداب العالمية، إلا أنه يحتل فى الآداب العربية منزلة خاصة، حتى لا نكاد نجد شاعرًا جاهليًا يخلو ديوانه من أبيات ومقطوعات فى التفاخر، يمتدح فيها الشاعر مناقبه ويعدد مآثره ويشيد بما تتحلى به قبيلته من صفات ويمتاز به قومه من فضائل.

وأجمل الفخر ما صدر عن صدق عاطفة، وحقيقة واقعة، وأبقاه ما ابتعد عن المغالاة، واشتمل على قيم إنسانية رفيعة ومُثُل حضارية جليلة.

وفى الديوان الشعر العربى على مر العصور واختلاف البيئات آيات من الفخر رائعات، تهيب بالقارىء إلى اعتناق مُثُلها وبلوغ مقاصدها، لكن يبدو أن هذا النوع من الشعر لم يكن شائعًا بين الشعراء فى شبه القارة كأنواع أخرى، إلا أن بعضهم أنشدوا فى هذا الباب أيضًا. وهاك الأمثلة:

يقول فيض الحسن السهاربنورى:

سل الناس بى كل دان وقاص ... تجدنى ذوابة قوم حراص
على بذل ما فيهم من خلوص ... وإتلاف ما عندهم من خلاص
وما زال منا كريم جواد ... يجود على المجتدى كالنشاص
ونطعن بالرمح تحت التراقى ... ونضرب بالسيف فوق القصاص
ترى بيننا كل نمر كمى ... على كل نهد شديد شناص

ففينا ومنا كماة حماة ومن لا يبالى بيوم عماص
إذا ما رأى بأسنا من أتانا يفر على ماله من حصاص[١]

ويقول أحمد بن مصطفى الكوبامؤى (ت:١٢٣٤هـ):

أما تدرى بآبائى وربى أولئك أهل مجد واحترام
صوارمهم حتوف للأعادى أياديهم حياة المستهام
ولاة فى بلاد العز جما حماة للجناة عن الغرام[٢]

ويقول يوسف الخانبورى:

سلى يا سليمى كل ذى المجد عن ذكرى أذو شرف مثلى عهدت بذا القطر
أخو الهمة العليا أصيل مكرم ولى عهود المكرمات مع الفخر
شديد على أهل الضلال غائظ وبين أصاحيب الهداية ذو البر
صبور على البأساء والضر التوى وليس على رزء المذلة ذا صبر
وآباؤنا من أشرف القوم سادة كرام أولى المجد المؤثر والذكر[٣]

وهكذا نجد هذا النوع من الشعر فى دواوين بعض الهنود، يعرض فيها الشاعر نواح شتى من كرمه وجوده، وحسن لقائه للضيوف والأقارب والأصدقاء، كما نجد بعضهم يفخرون بالحسب والنسب والمروءة والكرامة، وأحيانًا بالشجاعة والقوة وعدم الخضوع لأى نوع من أنواع الضغوط مهما كانت الظروف.

سابعًا: الهجاء

هو غرض من أغراض الشعر، يقوم على تقبيح صورة فرد أو جماعة، أو عادة من العادات، أو مظهر من مظاهر الحياة والوجود.

(١) ديوان النيض، ص٧٦.
(٢) نزهة الخواطر ٧/ ٣٧.
(٣) نزهة الخواطر ٨/ ٥٢٧.

والهجاء تعبير عن احتقار الشاعر للمهجو، والرغبة فى الحط من شأنه، والهزء به ومسخه ما أمكن إلى ذلك سبيلاً.

والهجو من موضوعات الشعر العربى فى جميع عصوره، طرقه شعراء الجاهلية فى مقابل المدح والفخر، وكان أشهر الهجائيين فى الجاهلية الحطيئة (ت:٥٩هـ-٦٧٩م) الشاعر المتشرد الذى كان يمدح من أناله ويهجو من رده، وقد بلغ من إدمانه الهجو أن هجا نفسه بقوله:

أرى لى وجهًا شوه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

واتخذ الهجاء فى صدر الإسلام وجهة تحزبية طائفية، ثم اتسع نطاقها فى العصور اللاحقة، حتى أصبح لكل حزب ولكل فئة شعراء يهجون مهاجمين ويمدحون مدافعين، فضلاً عن ازدهار الهجاء الفردى، الذى استعر بين الشعراء أنفسهم، وعرف كلا اللونين الإفذاع فى الكلام، ولم يتورع شعراء كالأخطل والفرزدق وجرير عن القذف والسباب ونهش الأعراض دون وجل أو حياء، كما لم يتردد شعراء النزاع الحزبى والشعوبى عن هتك الأستار ونشر المعايب والمثالب.

أما فى الهند، فلا نجد شاعرًا هجا شخصًا بعينه، من الشعراء الذين قرضوا الشعر باللغة العربية، إلا أننا نجد شاعرًا واحدًا هجا البلدة التى أقام بها فى آخر عمره، حيث لم يعجبه أهلها وجوهًا فهجاها وذمها ذمًا شديدًا يقول:

لقد حللت على بالى وبالى ببلدة ما بها عمى ولا خالى
ببلدة لا ترى فيها فتى كملت جيرانه وجليسا ناعم البال
ببلدة قد خلت عن كل مكرمة وهل سمعتم بمصر فارغ خال
ببلدة ما بها مجد ومأثره وما بها من كريم النفس مفضال
إلا كلاب وثيران وأحمرة ومن يماثلها من دون أمثال
ويلمها دار سوء دار منقضة سكانها شر أرزال وأنذال

قـوم لـهم كل مـخـزاة ومنقـصـة وكل ذم وعـــار خـلف إذلال[1]

وبعد سرد أنواع من الشـعر ونماذجه، يتضح لنا أن الشعـراء الهنود نظموا فى معظم أبواب الشعـر، وأضافوا إلى الشعـر العربى كمّـا كبيراً مـن الأبيات والقصائد، كـما أن محـاولتهم فى هذا المجـال محـاولة لا بأس بها؛ لأنهم ليـسوا عـربًا، وإنما نشأوا فى بيـئة أعجمية وتعلموا اللغة العربية عن مثلهم من الأعاجم.

❊ ❊ ❊

(١) ديوان الفيض، ص٥٤-٥٥.

obeikandl.com